صور من التسامح بين الأديان في الأندلس

Pictures of tolerance between religions in Andalusia

د. مصطفى زرهار

جامعة القرويين (مؤسسة دار الحديث الحسنية)

الرباط – المملكة المغربية

m.zarhar@hotmail.com

تاريخ الارسال : 2019/12/04	تاريخ القبول : 2019/12/19	تاريخ النشر : 2019/12/25
المؤلف المرسل: Marwa110311@gmail.com		

الملخص:

لم يعرف التاريخ البشري فتوحات أرحم من الفتوحات الإسلامية، التي سارت على نهج تعاليم الإسلام السمحة. لهذا كان الفتح الإسلامي للأندلس فتحا عظيما في البر والإحسان حيث شكلت الأندلس نموذجا للتسامح والتعايش بين أهل الأديان وباقي الإثنيات الأخرى، أثمرت حضارة فريدة أفسحت المجال للفكر الإنساني في امتداداته المختلفة، لينتج ثقافة بمكونات عربية إسلامية ويهودية، إلى جانب عطاءات مسيحية، فكان العصر الأندلسي بذلك عصرا ذهبيا لجميع أتباع هذه الأديان والثقافات المختلفة.

الكلمات المفتاحية: تسامح – الأديان – الأندلس – اليهودية – المسيحية – الإسلام.

Abstract

Human History has never witnessed conquests that are as compassionate as the Muslim ones thanks to the peaceful teachings of Islam. As a matter of fact, the Muslim conquest of Andalusia is considered as a great example of maintaining peace and coexistence between religions broadly, alongside different ethnic groups. Undoubtedly this was the rationale behind the creation of a unique civilization that is open to human thought broadly in all fields. Further, this civilization even

produced a very rich culture consisting mainly of Arabic, Islamic, Jewish and Christian components living altogether. Therefore, the Andalusian civilization is considered as the golden era for all these faiths as well as for different cultures.

Keywords : tolerance ; Religions ; Andalus ; Judaism ; Christianity ; Islam.

مقدمة:

كانت الأندلس مرتعا خصبا للتجاور والتبادل الثقافي بين المسلمين والمسيحيين واليهود وباقي الإثنيات الأخرى، حيث انصهرت هذه المكونات الثقافية في بوثقة واحدة أفرزت خليطا بشريا وحضاريا ميزها عن غيرها من الأقاليم الإسلامية، فصارت الأندلس بأكملها مدرسة العلم والفكر والثقافة، شكلت مدارس لها خصائصها في الفنون والعلوم والآداب ومختلف ألوان الحضارة بوجهها المادي والمعنوي، فكانت بلا جدال أساس النهضة الأوروبية الحديثة بل أهم مناطق التجمع اليهودي المثقف الذي حمل عبء استمرار الحياة الدينية والروحية لليهود حتى اليوم، بما أرساه من قواعد الدين والشريعة اليهودية.

من هذا المنظور جاءت فكرة الموضوع والذي من خلاله سنحاول رصد فترة زاهية من تاريخ الحضارة الإسلامية في الأندلس، حين كان المسلمون سادة الدنيا ومصدرا للعطاء النبيل للإنسانية، هذه الفترة التي مثلت نموذجا للتاريخ الإنساني قديمه وحديثه ومستقبله، بل نموذجا لحوار الحضارات وتعايشها.

ولمقاربة هذا الموضوع سوف نتطرق لعرض خمسة محاور رئيسة:

المحور الأول: الفتح الإسلامي والتواجد اليهودي المسيحي بالأندلس.

المحور الثاني: مظاهر تسامح المسلمين مع اليهود والنصارى.

المحور الثالث: أثر التسامح على اليهود والنصارى.

المحور الرابع: دور الحكام الأندلسيين في التسامح بين الملل.

المحور الخامس: نماذج من الازدهار الديني عند أهل الكتاب في الأندلس.

المحور الأول: الفتح الإسلامي والتواجد اليهودي المسيحي بالأندلس.

جاء في كتاب "معجم البلدان" لياقوت الحموي وهو يتحدث عن بلاد الأندلس: "...هي كلمة عجمية لم تستعملها العرب في القديم وإنما عرفتها العرب في الإسلام، وقد جرى على الألسن أن تلزم الألف واللام..."[1]

ويرتبط هذا الاسم فرضا باسم الوندال الأندليش، الذين أطلقوا على "بايتيكا" اسم "ونداليشيا" عندما عبروا شبه جزيرة إيبيريا قبل غزوهم لشمالي إفريقية،

ويرجع ورود ذكر اسم الأندلس إلى مستهل عام (98هـ/716م) على دينار مكتوب بلغتين، والنقش اللاتيني فيه يورد لفظ إسبانيا مرادفا للأندلس، وهذان اللفظان الأخيران هما الوحيدان اللذان استعملهما الإخباريون اللاتين الإسبان الأوائل، للدلالة على شبه جزيرة إيبريا باعتبارها كلا واحدا ؛ أي على الإسبانيتين المسيحية والإسلامية.(2)

ويذهب ابن خلدون في كتابه : "العبر"، إلى أن العرب أطلقوا على شبه الجزيرة الإيبيرية اسم "أندلوش"(3)، ويرجع أصل هذه التسمية إلى "قبائل الوندال Vandals، التي سكنت المنطقة منذ أوائل القرن الخامس الميلادي، فسميت باسم فاندالوسياVandalusia ؛ أي بلاد الوندال، ثم تم تلفظها بالعربية : الأندلس."(4)

وفي "نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب" : "أن "أول من سكن الأندلس قوم يعرفون بالأندلش، بهم سمي المكان فعرب فيما بعد بالسين غير المعجمة، كانوا الذين عمروها وتناسلوا فيها، وتداولوا ملكها دهرا على دين التمجس، ثم أخذهم الله بذنوبهم فهلك أكثرهم، فأقفرت الأندلس منهم...".(5)

وقد سميت الأندلس كذلك نسبة إلى "أندلس بن طوبال بن يافث، الذي كان يصاحبه أخ له يدعى سبت بن يافت، نزل العدوة المقابلة للأندلس، بالمكان المعروف الآن باسمه وهو سبتة."(6)

كانت هذه المنطقة خاضعة قبل الفتح الإسلامي للحكم القوطي الذي اتسم بالفوضى والاضطراب؛ إذ لم تكن هناك مثل عليا أو أخلاق تضبط تصرفات الحكام وتخدم مصالح الشعب، بل عرفت البلاد سلسلة من الحروب الأهلية والمنازعات التي كان لها انعكاس سلبي على الأمن واقتصاد السكان. حيث كانت طبقة رجال الدين المسيحيين تتمتع بامتيازات كثيرة، خولت لها الحصول على ثروات والعيش في نعيم، كان لها دور في المجال السياسي، وفي تعيين أو عزل بعض الملوك.(7)

في حين كانت طبقة العبيد تعاني كل أنواع الفقر والقهر والاضطهاد، وكانوا مملوكين، لكبار النبلاء ورجال الدين.(8)

وعليه، فقد كانت الأوضاع السائدة في شبه الجزيرة الإيبيرية أوضاعا مؤلمة، لطبيعة الحكم الذي ساد بالمنطقة والذي اتصف بالجور والظلم. ولهذا فقد كان للفتح الإسلامي نتائج وآثار نذكر منها:

– تحول إسبانيا إلى ولاية تابعة للدولة الإسلامية الكبرى وحدوث تغيير جذري في المجتمع الإسباني الذي كان يتكون من طبقات، إذ عمل الفتح الإسلامي على إذابة الفوارق بين هذه الطبقات، مكونا مجتمعا جديدا؛ وتحسين الأوضاع الاقتصادية في الأندلس، إذ أعيد توزيع الأراضي الزراعية توزيعا أنقذ الإسبان من جور الطبقة الأرستقراطية التي كانت تستحوذ على كل المحاصيل الزراعية، بخلاف المسلمين الذين تركوا للإسبان حرية زرع

الأرض مع تأدية الخراج الذي حدد بنسبة المحصول ووجود الأرض، وبعده أو قربه من مصادر المياه.[9]

يرجع العديد من الباحثين الوجود اليهودي في شبه الجزيرة الإيبيرية إلى الرحلات الفينيقية في البحر الأبيض المتوسط، حيث تم انتقال العديد من اليهود عبر هذه الرحلات، يقول حاييم الزعفراني : "الوجود اليهودي في شبه الجزيرة الإيبيرية قديم جدا، ويعود إلى العهد الذي أقام فيه الفينيقيون وكالاتهم التجارية على شواطئ البحر الأبيض المتوسط... حيث حملوا مثلهم مثل رفاقهم الذين هم من مملكة يهودا أو مملكة إسرائيل، بضائعهم ومعتقداتهم وحركيتهم ونشاطهم ومن المحتمل أن يكون هذا الأمر استمر وتنامى خلال فترة الاستيطان الروماني."[10]

واستمر هذا التنامي وصولا إلى الفترة الإسلامية في 711م، لتبدأ مرحلة جديدة من حياة اليهود والثقافة اليهودية حيث رفع الاضطهاد الذي عاشوه من قبل في ظل القوطيين، وأصبح اليهود ذوي مكانة في الأندلس بل منهم من وصل إلى رتبة مستشار الأمير.

ولعل التواجد اليهودي في منطقة شبه الجزيرة الإيبيرية وسط ثقافات دينية متعددة خصوصا في منطقة الأندلس، جعل اللقاء الحضاري بين أتباع هاته الديانات يخلق فرصا للتعارف والتعايش الديني والثقافي والاجتماعي، وهو ما ساعد الفكر اليهودي عموما في تطوره وازدهاره، فتوافرت أسباب اللقاء الحضاري والإنساني في بلاد الأندلس من خلال إشراك الإنسان فيها في العيش المشترك عرقا ودينا، وتعايش العربي وغير العربي والنصراني واليهودي والمسلم، وتمتعوا بالحرية الدينية والفكرية، مما أسهم في الحفاظ على هذا العيش وتنميته والعمل على ديمومته، كذلك تفاعلت اللغات واللهجات المختلفة مما أسهم في تحقيق أكبر قدر ممكن من التواصل الحقيقي بين الشعوب.

وكان ليهود الأندلس كما هو مدون في مختلف المصادر التاريخية مكانة مهمة بين يهود البحر الأبيض المتوسط، مكانة أرستقراطية وفكرية ودينية، جعلت عصرهم هذا عصرا ذهبيا في التراث الفكري اليهودي إلى يومنا هذا. وبرز حضور اليهود في الأندلس في القرن العاشر، خصوصا في العصر الموحدي، حيث عرف اليهود ازدهارا اقتصاديا وسياسيا وثقافيا وفكريا، فتحدثوا كما المسيحيين المتواجدين في التراب الأندلسي، اللغة العربية وكتب شعرائهم ومفكروهم بالعربية سواء بالحرف العبري أو العربي.

أما المسيحيون، فيذكر الدكتور عبد الرحمن الحجي: "أن العرب أطلقوا عليهم في بادئ الأمر اسم عجم الأندلس، وقد سموا بالمستعربين – بفتح الراء – لأنهم استعربوا لغة وزيا ؛ أي بمحض إرادتهم لبسوا الزي العربي، واتخذوا العربية لغة، فأقبلوا على قراءة شعر العرب وأدبهم"(11).

وتشير المصادر العربية كذلك إلى مسيحيي الأندلس بعدد من الأسماء المعلومة، مثل : "نصراني، رومي، والمقصود مسيحيو الإمبراطورية الرومانية، مسيحي : أي

من أتباع المسيح، أهل الذمة بمعنى : من هم تحت الحماية، أي تحت الحماية القانونية من قبل الدين والسلطات الإسلامية، كوضع اليهود والجماعات الأخرى، أو معاهد : المحافظ على العهد ؛ أي من عمل عهدا مع السلطات الإسلامية."[12]

وكان عدد هؤلاء المستعربين كبيرا في كل أنحاء الأندلس، وكانوا يشكلون طبقتين داخل المجتمع الأندلسي : الطبقة الأولى، طبقة عليا تضم كبار المسيحيين، أما الطبقة الثانية فهي من العامة، وبفضل الفاتحين، تغير الوضع الاجتماعي لهؤلاء؛ حيث احتفظوا بجل منتوج الأرض التي كانوا يخدمونها مقابل جزء يسير يؤدونه للدولة.[13]

وقد بينت الدراسات الحديثة أن بعض المسيحيين الأندلسيين لم يكونوا من أصول قوطية غربية؛ حيث كان هناك مسيحيون أصلهم من الشرق الأدنى، تم ذكرهم في المصادر العربية كحرفيين ومهنيين في الطب، والتجارة والعمارة والترجمة وغيرها، كما كان هناك مسيحيون، قدموا من الأجزاء الشمالية لشبه الجزيرة الإيبيرية، أو من المناطق الواقعة وراء جبال البيرينيه.[14]

"ومارس هؤلاء المستعربون شعائرهم الدينية في كنائسهم، كما قاموا بجميع أنشطتهم الاقتصادية والاجتماعية بكل حرية، وحظيت ممتلكاتهم الخاصة بحماية المسؤولين المسلمين."[15]

كما كان المستعربون بمثابة صلة وصل بين الحضارة العربية في الأندلس والمناطق الشمالية في إسبانيا المسيحية، فقد أدت عدة عوامل إلى تمتين اتصال المستعربين بمسيحي هذه المناطق، منها روح التسامح التي طبعت تعايش المسلمين والمسيحيين آنذاك، وأيضا إتقان المستعربين للغتين العربية واللاتينية، بالإضافة إلى استمرار هجراتهم منذ الفتح الإسلامي إلى المناطق الشمالية في إسبانيا، التي ازدادت وثيرتها في القرنين السادس والسابع الهجري/الثاني عشر والثالث عشر الميلادي، على عهد دولتي المرابطين والموحدين، الأمر الذي أدى إلى اكتشاف مسيحيي الشمال الإسباني، للثقافة الإسلامية العربية وانتشارها بينهم.[16]

هكذا عاش المسيحيون بسلام في سائر المدن الأندلسية، وزاولوا جميع أنشطتهم بحرية تامة مقابل دفع الجزية للمسلمين لأنهم من أهل الكتاب، وبالتالي فقد أظهر العرب نحوهم تسامحا في جميع الميادين وعلى رأسها المجال الديني، حيث أبقوا لهم أماكن ممارسة شعائرهم الدينية.

المحور الثاني: مظاهر تسامح المسلمين مع اليهود والنصارى.

بدأ تعايش المسلمين مع أهل الكتاب مع إطلالة فجر التاريخ الإسلامي "الذي يزخر بأمثلة حية وشواهد قوية على تسامح المسلمين وأمرائهم مع من كانوا بين ظهرانيهم من نصارى ويهود، حيث عاش هؤلاء في ظل الإسلام في سلام وأمان حتى في أكثر الأحوال تأزما. وقد أسهم هذا الوضع في محافظة الألوف من غير المسلمين على ضياعهم وأموالهم بعد فتح الأندلس."[17]

وهذا ما جعل الغربيين أنفسهم يطنبون في ذكر مناقب المسلمين وتثمينها من خلال حسن معاملتهم لأعدائهم، بل ينددون في المقابل بأخلاق المسيحيين التي كانت مطبوعة بطابع الغلظة والقسوة.[18]

وبذلك يكون زمن المسلمين بالأندلس زمنا عظيما بالإحسان والبر ومثالا بارزا ونموذجا واضحا للتعايش بين الأديان، إذ يقول الأستاذ هنري بيريس الذي اهتم بدراسة القرن الحادي عشر بالأندلس : "إن أي شعب مغلوب في أي قطر من الأرض، لم يحظ بما حظي به الشعب الإسباني إبان حكم المسلمين من تسامح، يتجلى في تطبيق العهود والقوانين الإسلامية التي أعطيت لأهل الكتاب حقوقا كريمة في العيش الكريم.[19]

ومن هنا كانت ظاهرة التعايش بين أهل الأديان الثلاث بالأندلس مادة غزيرة ومتواترة للتراث التاريخي الأندلسي إلى اليوم، حيث كرس لها مجموعة من الباحثين المختصين وقتا طويلا وجهدا كبيرا لتتبع نماذج التعايش في ظل هذا المجتمع، الذي أثمر حضارة فريدة أفسحت المجال للفكر الإنساني في امتداداتهم المختلفة، لينتج ثقافة بمكونات عربية إسلامية ويهودية عبرية، إلى جانب عطاءاته النصرانية وإن كانت قليلة، فكان العصر الأندلسي بذلك عصرا ذهبيا لجميع هذه الثقافات، وولد تعاونا دينيا وثيقا بين العلماء الذين ينتمون إلى الأجناس والأديان المختلفة.[20]

ويكاد "يجمع المؤرخون على أنهم لأول مرة في تاريخ اليهود بعد مملكة داود وسليمان استطاع اليهود أن يحسوا بالاطمئنان المادي والاجتماعي والفكري والديني، نتيجة أجواء التسامح والتعايش، حتى وصفت فترة تواجدهم خلال القرن العاشر والحادي عشر والثاني عشر الميلادي بالعصر الذهبي وقيل عنها أيضا أنه أسعد عصور التاريخ العبري وأعظمها ثمرة."[21]

لقد تعايشت الديانات السماوية الثلاث جنبا إلى جنب، واستوعب الجميع أن التواصل الديني والحضاري بينهم أمر لازم، لتشكل الأندلس بذلك نموذجا للتسامح والتعايش بين أهل الأديان الثلاثة وبين الإثنيات المكونة للمجتمع الأندلسي، من عرب وبربر ومستعربين ومولدين وصقالبة وغيرهم من الطوائف التي وفدت من مختلف الأصقاع، لتنصهر جميعها ضمن وحدة اجتماعية تميزت بخصائص حضارية مشتركة، ليكون هذا الخليط فسيفساء منصهرة بشريا وعقديا ولغويا وثقافيا، لمدة طويلة بفضل عاملين أساسيين:

1– الحرية الدينية والاجتماعية التي توفرت للسكان، والتي لم تعرفها شعوب أوربا من قبل.

2– تعدد الثقافات ووفرة العلم والإبداع الذي أثر إيجابيا في تسهيل عملية الاندماج والعيش المشترك.

لقد أسهمت العناصر الإسلامية والنصرانية واليهودية بقدر بارز في تشكيل هذا الجو من خلال إيحاءات مفعمة بروح حضارية غنية، تميزت بالقدرة على

التأثير والتأثر والانتظام فيما بينها انتظاما دقيقا لم يسبق له أن تحقق خلال هذا الزمن اليسير إلا في الأندلس[22]، وهذا ما يعبر عنه ابن عباد وبشكل واضح عند مراسلته يوسف ابن تاشفين بقوله : "فإننا نحن العرب في هذه الأندلس قد تلفت قبائلنا، وتفرق مجتمعنا، وتغيرت أنسابنا، فصرنا فيها شعوبا لا قبائل، وأشتاتا لا قرابة، ولا عشائر بيننا.[23]

وحتى العصبية العربية التي "انطلقت مع الفتح من الشرق العربي لم تجد لها منبتا خصبا في أرض الأندلس فتحللت روابطها في المدن وضعفت في البوادي، لأن الأندلس ليست بدار عصائب ولا قبائل"[24]كما يقول ابن خلدون، وكانت نتيجة هذا التمازج أن تحمل الجميع على اختلاف أصولهم وعقائدهم مسؤوليات تدبير الحكم مادامت الدولة الإسلامية لم تفرط في حقوقها وواجباتها نحو هذه العناصر المكونة للمجتمع الأندلسي، وخاصة إزاء أهل الذمة من يهود ونصارى.

وقد بلغ التسامح الديني ذروته في عهد الخليفة عبد الرحمان الناصر الذي تعايش في بلاطه كبار الأطباء والعلماء من الملل الثلاث، فضرب بذلك أعلى مثل في التسامح الديني، إذ جمع في قصره الطبيب المسلم أبي الوليد مُحَمَّد ابن الحسين المعروف بابن الكتاني، والطبيب اليهودي حسداي ابن شبروط الذي كان وزيرا وسفيرا للخليفة، والنصراني ربيع ابن زيد الذي نصبه الخليفة أسقفا مكافأة له على النجاح الذي حالفه في جميع المهمات الرسمية، ولمجهوده الكبير في ترجمة بعض الكتب من اللاتينية إلى العربية بالتعاون مع العالم المسلم المحدث قاسم ابن الأصبغ.[25]

ويتأكد مما سبق أن النصارى أنفسهم كان لهم من الحرية مثل الذي لغيرهم رغم أنهم لم يكونوا مثل اليهود في الكفاءة، لذلك ضمن للمسيحيين في الأندلس حرية المعتقد من طرف السلطات الإسلامية منذ الفتح مرورا بعصر الولاة والإمارة والخلافة ليبلغ التسامح الديني اتجاههم ذروته في عصر ملوك الطوائف، حيث انتشرت الكنائس في طول البلاد وعرضها سواء في المدن الكبرى أو الصغرى، بل أتيح للمسيحيين أن يحتفظوا بما في كنائسهم من تماثيل القديسين، كما سُمح لرجال الدين أن يظهروا بملابس الكنيسة و يحرقوا البخور، ويتلون الترانيم الجنائزية.

ومن مظاهر هذا التعايش ما يرويه ابن **عذارى** من أن مجموعة من مستعربي غرناطة ذهبوا إلى بلاط الأمير المرابطي علي ابن يوسف لتقديم شكوى حول تعسف تعرضوا له من قبل عامل المدينة المسمى عمر بن ينالة، فلما ثبت للأمير حجتهم أمر بسجنه وأنصفهم من تظلماته كما لم يجد القاضي ابن رشد أي حرج في تحويل حكم كان لصالح مسلم إلى نصراني ثبت أن حقه قد هضم[26]، كما أفتى القاضي أبو عبد الله ابن يحي وكان شيخ المفتين بقرطبة (ت 277هـ) بإطلاق صراح صبي نصراني أسلم ثم عاد إلى النصرانية بخلاف ما ورد في فتوى ضرورة قتل كل من ارتد من أولاد المسلمين دون غيرهم، في حين سوت الفتاوى بين الذميين والمسلمين

فيمن أنكر نبوة مُحَمَّد ﷺ، وجاء في فتوى ابن تاشفين أن الذين أسلموا خوفا يقبل إسلامهم وإذا رجعوا عن الإسلام لهذا السبب يعذرون.(27)

وكانت الأناجيل شائعة الرواج بين النصارى وغيرهم، وقد استفاد منهم ابن حزم كثيرا في كتاب "الفصل" واستطاع من خلالها مناظرة ومجادلة النصارى.

ومن مظاهر التسامح والتعايش الذي نهجته الدولة الإسلامية التي حكمت الأندلس مع النصارى، أنها تركت لهم نظامهم القضائي كما كان في العصر القوطي دون تدخل أو إكراه وكان القاضي الذي ينظر في قضاياهم ويحكم بينهم يعرف بقاضي النصارى أو قاضي العجم لذلك أظهر رجال الدين من النصارى الطاعة للسلطة الحاكمة في كثير من المناسبات والتي كانت تتخذهم مستشارين في قضاياهم الخاصة وفي قضايا النصارى وأحوالهم، ويذكر ابن القوطية أن عبد الرحمن ابن معاوية هو الذي نصب أول "قومس" في الأندلس.(28)

المحور الثالث: أثر التسامح على اليهود والنصارى.

إن التسامح والتعايش الديني الذي أبداه المسلمون في تعاملهم مع أهل الكتاب وباقي الملل الأخرى، جعل المسيحيين يعتنقون الإسلام أيضا، وتذكر الروايات التاريخية أن مسيحيي إشبيلية اعتنقوا الإسلام بكيفية جماعية في عصر المرابطين، حتى أن الراهب "ألبير" اشتكى من ظاهرة إقبال المستعربين على اللغة والآداب العربية، وانصرافهم عن لغتهم وآدابهم ودينهم، كما شاركهم المسلمون في معظم احتفالاتهم الدينية كاحتفالهم بعيد "النصرة"، وعيد "الفصح" الذي يمثل لدى المسيحيين ذكرى نزول روح القدس على حواري المسيح الاثني عشر، وذكرى خامس أبريل وتدعى عندهم بذكرى الجمعة العظيمة، وترمز إلى تاريخ صلب المسيح، وعيد سان خوان الذي لم يجد المسلمين أي غضاضة في التحلي بأجمل الأزياء واستضافة الأصدقاء والأحباب لقضاء أجواء الليل في الاحتفال والسهر، بل استعمل المسلمون الرسوم الاجتماعية المعمول بها عند المسيحيين، الشيء الذي انتقده بعض الفقهاء الورعين من أمثال ابن الوضاح والطرطوشي والغرفي معتبرين ذلك من البدع.(29)

ولعل الزواج كان من أبرز مظاهر التعايش الاجتماعي بين المسلمين والنصارى مما أدى إلى تكوين عائلات وبيوت اختلط فيها الدم العربي الإسلامي مع الدم المسيحي الإسباني، وقد أفرز هذا الزواج المختلط أبناء يحملون الدم العربي والإسباني عرفوا "بالمولدين".(30)

وبذلك تكاثر أهل الذمة من النصارى واليهود في نسيج اجتماعي حاولوا فيه تضييق رقعة المساحة بينهم وبين المسلمين، فأقبلوا على الثقافة العربية الإسلامية بتعلم لغتها بل وإتقانها والاطلاع على آدابها وأشعارها واستيعاب علمها، بل تمخض عن ذلك التعايش ظهور لغة يومية تمزج بين اللغة العربية واللغة المحلية والتي

أسهمت في تمثيل عرى التواصل الاجتماعي بين المسلمين وأهل الذمة.

وعلى مدى ما يقرب من ثمانية قرون كان المسيحيون والمسلمون واليهود يعيشون جنبا إلى جنب يتواصلون بلغة عربية تعرف عليها المجتمع الأندلسي بمختلف فئاته، بفضل عدم فرض العرب لغتهم رغم حكمهم للأمة كما تفعل بعض الأمم الغالبة، حيث تركوا الحرية بكافة الطوائف والإثنيات بالتعامل بلغتها المتداولة، فكان نتيجة ذلك تواصل الجميع باللغة الأندلسية كلغة يومية.(31)

والقارئ للمادة التاريخية التي تزودنا بها النوازل الفقهية، سيكتشف وبدون عناء تلك الامتيازات التي منحت ليهود الأندلس، والتي تمتعوا بها اجتماعيا وسياسيا واقتصاديا ودينيا، وقد احتكم المؤرخون إلى الوقائع التاريخية التي أثبتت أن المجتمع الأندلسي حرص على عدم تجاوز الخطوط الحمراء في تعامله مع أهل الذمة، بل إن الفقهاء المسلمين وقضاتهم حرصوا على تقديم النصح لهم في دينهم ودنياهم، وبادلوهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن أمثلة ذلك قرار العلماء المسلمين توجيه مذكرة إلى أحد الحكام المسلمين لدفع اليهود إلى إصلاح أنفسهم، والتمسك بدينهم عندما أهملوا الصلوات التي كانوا يؤدونها كل صباح.(32)

كما تمتع اليهود في ظل هذه الحرية بالسماح لهم ببناء دور عبادتهم في أحيائهم الخاصة، بل حتى بين أحياء المسلمين أحيانا، ويؤكد ذلك مرة أخرى كثرة الفتاوى المتعلقة بهذا الأمر ومثال ذلك الفتوى التي طلبها سكان حي مسلم من "عبد الله العبدوسي" في أمر إجراء الماء لسكان حي يهودي من مسجد ملاصق له، حيث أفتى بجواز ذلك، كما ظلت سلطتهم وقضاؤهم ومقاليد أمورهم الدينية الخاصة بهم بين أيديهم، إذ جرت العادة أن تعين السلطة الإسلامية رأس الجالوث أو الناسي أو شيخ اليهود للقضاء في أمورهم وتطبيق تشريعاتهم بينهم، ويكون هذا الشيخ هو الواسطة بينهم وبين السلطة المدنية المسلمة، لهذا كانت تشترط فيه الحنكة والقدرة على المداراة والمعرفة بجباية الضرائب وغيرها ودفع الظلم وتحقيق العدل بينهم وفق تشريعات دينيهم ومقتضيات قوانين مذاهبهم، كما كان النصارى يتحاكمون فيما بينهم وفق ما تضمنه القانون القوطي.(33)

ومن الأنشطة التي كان مسموحا بها لليهود زواج نساءهم بالمسلمين إذ كان المسلم يقبل أحيانا كثيرة بقاء زوجته اليهودية على دينها، وكان ذلك تعزيزا للحوار الثقافي والديني والاجتماعي بين أهل الملل الثلاث، لدرجة أن الحمامات كما أخبرت بذلك الكثير من الفتاوى كانت مشتركة، يدخلها المسلم والنصراني واليهودي على حد سواء، واكتسبها اليهود عادة الذهاب إلى الحمام الإسلامي والغسل فيه بتأثير من الفقه الإسلامي، كما صار عندهم التوضؤ سنة متبعة رغم أنه غير معروف في اليهودية، بل إن ابن ميمون نص عليه في كتبه التشريعية، وتذكر الشواهد التاريخية أنه

كانت لهم حمامات خاصة تجاور الكنيس اليهودي في العادة.

وقد كان تقديم الهدايا وقبولها أمرا معهودا بين اليهود والمسلمين، حيث كان اليهود يهدون المسلمين فطائر ورغائف يصنعونها في بعض أعيادهم، ويتبادلون العزاء عند موت أحد اليهود، والذي كان يحمل على أكتافهم متوجهين به إلى المقبرة اليهودية، التي تكون في العادة قريبة من الحي اليهودي، مرتلين نصوصا توراتية أغلبها من المزامير، وإذا مروا من داخل الأحياء الإسلامية كانوا يهرولون صامتين، وعند دفنهم للهالك كانوا ينقشون على الشواهد فقرات من التوراة وبعض الأشعار.(34)

لهذا كان التعاضد والتعاطف بينهم وبين المسلمين كثير الوقوع، سيما عندما تشتد الأزمات على الجميع، إذ يلجأ الطرفان إلى طقوس وشعائر وصلوات تخص النكبات، كالاستسقاء عند الجفاف وانحباس المطر أو التذرع بالأسماء القدسية، وكان من عادة اليهود الابتهال إلى الله عند حدوث المصائب بثلاثة عشرة من أسمائه الحسنى.(35)

ومما شاع بين النصارى واليهود على حد سواء ظاهرة التسمي بالأسماء العربية، سواء بين خاصتهم أو عامتهم لتصبح هذه الأسماء العربية مشتركة بين الجميع.

ومن أغرب مظاهر هذا التسامح أيضا، على المستوى الديني والسياسي أن الدواوين الحكومية كانت تعطل يوم الأحد فقد ذكر المؤرخ ابن حبان نقلا عن الرازي : "وكان أول من سن لكتاب السلطان وأهل الذمة، تعطيل الخدمة يوم الأحد من الأسبوع، والتخلف عن حضور قصره "قومس ابن أنتينان" الذي كان كاتب الرسائل للأمير مُحَمَّد، وكان نصرانيا فتبعه جميع الكتاب طلبا للاستراحة من تعبهم والنظر في أمورهم.(36)

لقد كانت أجواء التسامح حاضرة مع اليهود حتى في المغرب الأقصى، بل أصبحت فاس كما يقول البكري أكثر بلاد المغرب يهودا، ينتقلون منها إلى جميع الآفاق منذ اعتلاء المولى إدريس الثاني أريكة العرش المغربي، وانبثقت في القيروان بعد ذلك حركة فكرية تلمودية، ما لبثت أن ازدهرت بفاس، كما انتشرت مراكزهم الدينية أيضا في العصر المرابطي خاصة أثناء حكم علي بن يوسف الذي اعتبروه "من أعظم حماة اليهود."(37)

ورغم ما ذكر سلفا فإن القارئ لتاريخ التعايش الديني للمسلمين مع غيرهم، لا يملك الوثائق الكثيرة والسجلات الحاخامية التي تسمح باستعادة صورة أكمل وأكثر وضوحا للحياة اليهودية في إسبانيا المسيحية والأندلس الإسلامي، لكن الجميع غربيين ومسلمين يؤكدون ويقرون أن العرب المسلمين جعلوا من إسبانيا في تلك العهود دولة حريات يعيش فيها المسلم والمسيحي واليهودي بحرية تامة بعيدا عن التعصب، وداخل إطار سلام اجتماعي تام، بحيث لم يفرق المسلمون خلالها في معاملاتهم بين طائفة وأخرى، بل حظيت كل الطوائف بممارسة شعائرها الدينية في بيعها وكنائسها دون تدخل من طرف الدولة، ومن بين

الكتاب الغربيين والذين أكدوا هذا الأمر الكاتب الإسباني المعاصر "بلاسكوأبانيز" والذي توفي سنة 1928م، إضافة إلى "حاييم الزعفراني" صاحب كتاب "ألف سنة من حياة اليهود في المغرب" والذي قال فيه : "لقد عرفت اليهودية الأندلسية في مجموعها حياة أكثر رخاء وأكثر اطمئنانا كما لم نعرفها في مكان آخر.[38]

وبذلك كان اليهود جزءا عضويا من الكل الحضاري، مادام الإسلام لا يرى في الآخر عدوا، ولم ينظر إلى الاختلاف بكونه جريمة يجب المعاقبة عليها، مثلما كان موقف الكنيسة اتجاه الآخر الديني إبان العصور الوسطى.[39]

ولأول مرة في التاريخ اليهودي أحس اليهود بالاطمئنان الفكري والمادي والاجتماعي، فازدهرت أكاديمياتهم ومن خلالها دينهم المغلق الذي انفتحت أمامه آفاق جديدة من الفكر، ليظهر من بينهم مفكرون وفلاسفة يختفون آثار مفكري الإسلام في جميع مناحي المعرفة، فكان بذلك الفكر اليهودي في العهود الأندلسية والإسلامية انعكاسا للفكر الإسلامي، إذ ظهرت فرق كلامية مثل التي ولدت في البيئة الإسلامية، ونقلوا بذلك جدالات المتكلمين إلى التوراة والتلمود[40]، وأنشأوا المجامع العلمية في قرطبة وطليطلة وإشبيلية وغيرها، ووجد كثير من مفكريهم مجالا للبحث واستقراء النصوص المقدسة، وتغذية تراثهم الثقافي والفكري لينعكس ذلك على يهود العالم في تلك الفترة، حيث لاحظ "سيماخ" أن الرحالين اليهود الذي زاروا المغرب في مختلف العصور كانوا يجدون الرحب والسهل، "حيث رحلوا وارتحلوا وكانوا يشاركون بكل حرية في الاحتفالات والمهرجانات والصلوات، بل كانوا يلقون دروسا تلمودية على طلبة من مختلف الأديان أحيانا، ومن جملة هؤلاء الرحالين اليهود الذين نعموا زمن الموحدين بأجواء التسامح "بن جمال الطليطلي". كما قام اليهودي المغربي "مردوخي أبو سرور" برحلة إلى السودان وصنف كتابا حول استقرار اليهود في "تمبكتو" لأول مرة."[41]

هكذا تعايش المسيحيون واليهود مع المسلمين وامتزجوا بهم وشاهدوا النهضة الفكرية الإسلامية في أوج عظمتها حيث نشأ عن ذلك ازدهار في العلوم الدينية اليهودية والمسيحية، وتطورت تطورا ملحوظا في مختلف اتجاهاتها، وما لعبته الحضارة الإسلامية من دور في النهضة العلمية لليهود والنصارى حتى أصبح هذا العصر بحق العصر الذهبي للحياة اليهودية بصفة عامة والدينية والأدبية بصفة خاصة.

لذلك فتح هذا التعاون بين الديانات آفاقا واسعة ستستفيد منها أكثر الشعوب المجاورة وحتى البعيدة، على المستوى المعرفي والعلمي والحضاري عموما.

المحور الرابع: دور الحكام الأندلسيين في التسامح بين الملل.

لقد كان لعامل التسامح الديني وحرية الفكر التي تمتع بها اليهود، أن مارسوا شعائرهم الدينية، وأسسوا

مدارسهم وأكاديمياتهم بالأندلس، والتحقوا بها حتى من الشرق، لتصبح الأندلس مشتلا يطعم الفكر العلمي اليهودي والمسيحي.

فبعد فتح الأندلس مباشرة بدأت تظهر ثقافة حية، حيث برزت مقوماتها وارتفع بنيانها في ظل قدر كبير من الاستقرار والأمن حيث لعب اليهود والنصارى دورا حاسما في هذا الازدهار الثقافي، لأن المسلمين والمسيحيين واليهود كانوا معا في بوتقة ثقافية واحدة.[42]حيث أوت إلى الأندلس أضخم جالية يهودية في العالم في هذا العصر، كما يؤكد على ذلك شوراكي في كتابه La condition juridique de l'israélite marocain، لذلك بدأ الإنتاج الفكري الحقيقي – الذي يحمل كل سمات النضج العقلي والحضاري – بالأندلس يثمر في بحر القرن الثالث الهجري والرابع الهجريين، لتصبح هذه المرحلة متميزة في تاريخ الثقافة العربية الإسلامية بالأندلس، التي اكتملت فيها جميع العوامل الباعثة على قيام نهضة حضارية متعددة الجوانب والآفاق.

فإبان هذه الفترة استقلت الأندلس بخلافتها رسميا عن الشرق، وتوسعت الدولة على يد ثلاثة من كبار رجال السلطة العظام وهم "عبد الرحمن الناصر"، والحكم الثاني المدعو: "المنتصر بالله"، ثم "المنصور بن أبي عامر"، إذ أثناء حكمهم توسع النشاط العلمي وظهرت بوادر نضجه[43]، حتى جعل ابن الخطيب يصف هذا الازدهار بالأندلس بقوله : "ومن الأعلام هضاب راسية، وبحار في العلم زاخرة، وأعلام قولهم مسموع وبرهم مشروع، وأُثرهم متبوع.[44]

ويذكر أن الخليفة الناصر قد قرب إليه العلماء من مختلف الأديان والأعراف بل ألف لجنة من العلماء اليهود لمساعدته في الترجمة إلى اللغة العربية، والتي ترأسها "حسداي ابن شربوط"، ومعه الفيلسوف" أبو عبد الله الصقلي"، حيث حازت أعمالهما المترجمة على إعجاب الأمير، وبلغت بذلك الأندلس زمانه عصرا ذهبيا يذكر بفخر في التاريخ الإسلامي[45]، ولم يرض هذا الخليفة أن تبقى بلاده صورة باهتة للمشرق بل رغب في أن يكون الغرب الإسلامي منافسا له في السياسة وشتى فنون العلم والأدب، دون أن يصل الأمر إلى قطع العلاقات الثقافية بين الجهتين، لذلك عمل على مضاعفة هذه العلاقات فكثرت بذلك الرحلات العلمية في أيامه إلى المشرق العربي يعود منه العلماء بحصاد وفير من الأفكار والكتب، كما استقبل العلماء المشارقة الوافدين على البلاد، وكان من أبرزهم "أبو علي القالي"، حيث أمر ابنه باستقباله واصطحابه إلى قرطبة تكريما له عند قدومه إلى الأندلس سنة 330هـ، ومختارا إياه ليكون أستاذا ومؤدبا لابنه، وكان أول مدرس يعتلي كرسي اللغة العربية في مساجدها وجامعاتها، ليبدأ تلاميذته في التكاثر، ويذكر أيضا أنه جلب معه أحمالا من الكتب العربية القديمة في أصولها المقروءة والمسموعة والمحققة، ليؤثر في المناخ الثقافي الأندلسي عن طريق :

1 – ما حمله من الكتب من المشرق.

2 – مؤلفاته العديدة ذات الطابع اللغوي والأدبي.

3 – تلاميذته الذين تعددت أفواجهم وطبقاتهم.

4 – منهجه الذي يقوم على التحقيق والضبط.

ولم يكتف الناصر بما حمله القالي من كتب، بل بعث "عباس ابن ناصح الحريزي" إلى المشرق للبحث عن الكتب القديمة النادرة.(46)

أما في عهد "الحكم الثاني الملقب بالمستنصر بالله"(350 – 366هـ)، فقد بدأت العلوم الفلسفية تأخذ مكانة ملحوظة لأنه كان شغوفا بالمجد العلمي والأدبي أكثر من شغفه بالمجد الحربي الذي شغل أباه قبله، فكان له فخر افتتاح الدراسات العليا، وتمهيد السبل أمام الراغبين فيها والمتطلعين إليها، بعد أن كانت هذه الدراسات تنتهي في أعلى مستوياتها بالمساجد، لذلك قال المقري : "وليس لأهل الأندلس مدارس تعيلهم على طلب العلم، بل يقرؤون جميع العلوم في المساجد بأجرة.(47)"، وإضافة إلى جمعه للمؤلفات من الشرق والمغرب، فقد كان كما يقول المقري يستجلب المصنفات من الأقاليم والنواحي باذلا فيها ما أمكن من الأموال حتى ضاقت بها خزائنه، وكان ذا غرام بها قد آثر ذلك على لذات الملوك(48)"، وبذلك جمع عيون التأليف قديمها وحديثها من بغداد ودمشق ومصر وغيرها من بلاد الشرق، كما كان يعمل على إحضار الثمين منها قبل أن تظهر في بلاد مؤلفيها أحيانا، ومن ذلك أنه عند علمه بقرب ظهور كتاب "الأغاني"، طلب من مؤلفه أبي الفرج الأصفهاني أن يبيعه إياه بألف دينار من الذهب، حيث بعث به إليه قبل أن يرسله إلى العراق(49)"، مما يؤكد أنه كان على اطلاع وتتبع لأخبار النشاط العلمي في المشرق ناهيك عن المغرب، وعين لذلك رجال علم متفرغين للطواف في عواصم المشرق لموافاته بأحسن ما تنتجه القرائح في ديار الإسلام، فجمع منها مثلما جمع أمراء بني العباس في وقت أقصر، حتى صارت خزائنه الخاصة تحتوي على ما يقدره المؤرخون أربع مائة ألف مؤلف، في الفلسفة واللغة والطب والجغرافية والفلك والكيمياء والتاريخ وغيرها.(50)

وكان هذا الأمر سببا قويا في ميل الناس زمانه لقراءة كتب الأوائل، وتعلم مذاهبهم، مذكيا هذه الجهود العلمية بين الجميع، ليشارك فيها العلماء المسيحيون واليهود والمسلمون، الذين كانوا يتكلمون لغة واحدة ويشاركون جميعا في الدراسات الأدبية والعلمية، حتى أصبح طلب العلوم المختلفة بالأندلس لذة، بالإضافة إلى ما يحصل بها من مكاسب مادية واجتماعية، وكان هذا الملك يمتاز بمشاركتهم في قراءتها والتعليق عليها، لأنه كان غزير العلم، وواسع الاطلاع حتى اعتبر العلماء تعليقاته على بعض الكتب من أجل ما كتب، تبعه في ذلك أثرياء القوم، وذوو اليسر منهم والذين مالوا إلى اقتناء الكتب، وإقامة الكتب الخاصة في دورهم وقصورهم.(51)

ولم يكن الخلفاء يقتصرون على إكرام أكابر العلماء بالجوائز والعطاءات من المال، بل كانوا يتخذونهم أصدقاء وخاصة وأصفياء، حيث اعتبرت قرطبة عندهم مركزا فكريا في الطرف الغربي الأقصى من العالم الإسلامي، وكانت مركزا للحوار مع المشرق في المجالات الثقافية والفكرية، مما جعل نقاد المشرق العربي يسمون النابهين من شعرائها، مثل "ابن هانئ" و"ابن زيدون" بأسماء شعراء المشرق، كبحتري المغرب أو متنبي الأندلس[52]، وسمى المؤرخون العرب قرطبة بعروس الأندلس، مما جعل الراهبة السكسونية المعاصرة "هوروسوثيا" تسميها ب "زنية الدنيا". وأكد المؤرخ المقري بأنها كانت تتفوق على عواصم العالم بأربعة أشياء، القنطرة فوق نهرها، والجامع وهما أول اثنين، والثالث مدينة الزهراء، لكن الرابع أعظمها وهو العلم.[53]

وبذلك أصبحت قرطبة تنازع بغداد حول الزعامة الفكرية في العالم الإسلامي، فقد كان جامع قرطبة مركزا مشهورا للدراسات العليا بمستوى القاهرة وبغداد، إذ مثل أول جامعة في القرون الوسطى بأوربا، حيث كان الألوف من الطلبة يتلقون العلوم الإسلامية الأساسية فيه، مثل التفسير والفقه والحديث، إلى جانب الكيمياء والطب والفلك الفلسفة، وعلم النبات والرياضيات والمنطق، وأراء المعتزلة والمتصوفة وغيرها من علوم الإغريق[54]، لذلك كانت دار إقامة كريمة لكل العلماء الوافدين من الشرق على الأندلس، فتصدروا في مساجدها حلقات التدريس ونقلوا أفكار المذاهب التي كانت تروج في الشرق[55]، كما كانت مركزا ثقافيا لامعا لليهود، وكان أبرز من مثل هذه الطائفة بها "حسداي بن شبروط" الذي كان عالما وطبيبا، واجتذبت إليها كثيرا من المفكرين والشعراء وفلاسفة اليهود، الذين أشرفوا على أنشطة التأليف والترجمة إلى العربية ومنها إلى اللغات الأجنبية الأخرى.[56]

كما شيد بقرطبة أكثر من سبع وعشرين مدرسة يأتيها التلاميذ من أقاصي الأرض ليتعلموا فيها، وكانت للفقراء منهم دور إقامة أعدتها الدولة مجانا ليسكنوا بها، كما منحت لهم فيها أرزاق ومبالغ مادية من بيت مال الدولة، وبذلك أصبحت قرطبة كما يصفها البعض : "مهد الحياة الرفيعة، وكعبة الفلاسفة والشعراء، ومركز الفنون ووطن الأدباء، ومنار العلوم وشمس الحضارة، وبلغت من العمران والتمصير في هذا العصر الغاية."[57]

وفي زمان هذا الملك لم تكن بالأندلس في هذه الفترة ولو قرية – وإن كانت صغيرة –بعيدة عن أجواء التعليم أو محرومة من بركاته، كما أن العلم لم يستثن منه حتى أبناء أحقر الفلاحين، الذين كانوا يمنحون زيادة على ذلك شيئا من المال.[58]

ونالت النساء حظهن من التعليم والأخذ بأسبابه، كما لم يحرمن من المشاركة أو المساهمة مع الرجال في المحافل العامة، إذ أصبحت منهن المدرسات أو أمينات المكتبات، مثل واحدة كان اسمها فاطمة جعلت مسؤولة على مشتريات الكتب للمكتبة الملكية، بل كانت كثيرة الأسفار لهذا الغرض بجانب عشرات الناسخات.[59]

وكانت أهم فترة لرواج الكتب وتأليفها ونسخها وبيعها هي القرن الرابع الهجري، حيث كانت عملية بيع الكتب من أهم العمليات التجارية المضمونة الربح لإقبال الناس على اقتنائها[60].

كل ما سبق يؤكد أن الأمة كانت كلها محتفية بالعلم، وعارفة بقدره، ومشاركة في الاطلاع على إنتاجات أصحابها بمختلف مللهم وأعرافهم، ومنهم اليهود الذين نالوا الحظوة في هذا الوقت، وبلغوا سعة وعمقا لم تكن إلا عند معاصريهم من المسلمين، إذ ازدهرت علومهم الدينية اليهودية بقرطبة، التي أسس بها العالم "موسى بن أخنوخ" بمساعدة "حسداي بن شبروط" المدرسة الدينية العليا، التي نافست مدارس بغداد[61]، كما ازدهرت علوم اللغة العبرية، وظهر أول مدون لقاموس عبري كامل "لمناحم بن شروق"، وأدخل دوناش بن لبراط البحور العربية في الشعر العبري، وبدأ البحث في النحو العبري مع "أبي زكرياء يحي بن داود بن جيوح"، و"أبو الوليد مروان بن جناح"، واشتغل آخرون بالفلسفة مثل "سليمان ين يحي بن جبيرول" و"موسى بن ميمون"، وكان لغيرهم الفضل الكبير في بعث اللسان العبري والدراسات التلمودية.[62]

كما مدت الأندلس يدها إلى المشرق العربي لتطوير حياتها الفكرية، مستوردة ما شاءت من الآثار الأدبية والعلمية، ومستقبلة رجال الفكر والفن ليسهموا في إغناء المشهد الثقافي بالأندلس، ومن بينهم المغني الشهير "زرياب" الذي وفد إليها زمن حكم "عبد الرحمان الأوسط"، والذي ركب بنفسه لاستقباله وبالغ في إكرامه، إذ أنزله في دار في أعظم دور قرطبة ورتب له الإقطاعات، ليجد مجالا لإغناء الموسيقى الأندلسية، حيث لم تعد السيطرة فيها لمطربي اليهود بل ساروا أنفسهم تلاميذ له[63]، وكان له إضافة إلى ذلك تأثير كبير على كل أنماط السلوك الحضاري الأندلسي، إذ تفنن في تعليم أفراد الطبقة الحاكمة طرائق ناعمة لا عهد لهم بها في المأكل والمشرب، وترتيب الموائد والأطعمة وتبادل المجاملات، وما إلى ذلك من مظاهر ليونة العيش، أو ما يدعى اليوم بالبروتوكولات الرسمية.[64]

ورغم ما أثير حول اضطهاد الموحدين لليهود من طرف "ولفنسون" وغيره، فإن حكمهم اقترن بظاهرة تعايش المسلمين واليهود تعايشا لم تعرفه السنوات الماضية، حيث وجدنا اليهود يشتركون إلى جانب المسيحيين والمسلمين في مجالس علمية واحدة، على نحو ما نقله ابن الخطيب في كتابه "الإحاطة": "ولم يتغير الأمر بالنسبة لهم إلا عندما اتخذ بعض اليهود مواقف لا تتناسب مع واجب المواطنة، ولعل تنقل "ابن ميمون" وأسرته في كل أرجاء الإمبراطورية الموحدية، يعتبر أبرز دليل على حرية اليهود يومئذ في التنقل بأنفسهم وأموالهم وأفكارهم حيث شاءوا، لطلب العلم ولقاء العلماء كما كان يفعل كثير من الأندلسيين والمغاربة المسلمين الذين رحلوا للمشرق لنفس الغرض، وأما الحديث عن اضطهاد اليهود، والذي أكثر من تداوله بعض الكتاب

الغربيين عن هروب ابن ميمون وغيره من الأندلس بسبب موقف الموحدين من اليهود، فقد كان مبالغة وتهويلا، ومحاولة من المرابطين والموحدين لأنهم نهضوا للدفاع عن الأندلس."[65]

المحور الخامس: نماذج من الازدهار الديني عند أهل الكتاب في الأندلس.

نشطت الدراسات اللاهوتية في الأندلس وظهر علماء في ذلك من أمثال "أزيدور الإشبيلي"(ت 635 هـ)، وأسست لهذا الغرض مدارس يهودية للدراسات اللاهوتية وجعل على رئاستها الربى ناتان، الذي تنازل عنها فيما بعد للعالم التلمودي الربي "موسى بن حنوكة"، الذي تلقى تعليمه في مدرسة سورا بالعراق، وعاد إلى الأندلس وهو عالم كبير في العربية والعبرية، فلقب بالأندلس ب "رأس العرش"، وعينه الخليفة الناصر الحاخام الأكبر ليهود الأندلس[66]. هذا إضافة إلى "حسداي بن إسحاق بن شبروط"، الذي كان ذا ثقافة وعلم، وقام بمهمات جسام في جهاز الدولة، والذي يصفه ابن حبان بقوله : "وحيد العصر الذي لا يعدل به خادم، ملك في الأدب، وسعة الحيلة ولطف المدخل وحسن الولوج"[67]. فقد كان مترجما للناصر ومدير إدارته العامة ومشرفا على جمارك المملكة، كما كان يذهب في سفارات خطيرة، ويستقبل السفراء القادمين على قرطبة، ولهذا كان شخصية مركزية في المجتمع اليهودي، مستغلا مركزه الرسمي في رعاية مصالح المجتمع اليهودي عامة، وفي العالم كله وليس في الأندلس فحسب، إذ راسل بالعبرية هيلينا زوجة الإمبراطور البيزنطي قسطنطين السابع يطلب منها حماية يهود بيزنطة من الاضطهاد[68]، كما أنه أول من فتح ليهود الأندلس باب العلم الفقهي، والتأريخ لأنساهم ومعرفة المواقيت، إذ كانوا قبل ذلك يضطرون لمعرفة أنسابهم ومواقيت أعيادهم بالاعتماد على يهودي بغداد، فاستحلب التآليف اليهودية من المشرق لضبط التواريخ والأنساب.

وبجانب ما سبق نذكر شيخ نحاة اليهود أبو الوليد مروان من جناح القرطبي، والذي عاش أثناء القرن الحادي عشر الميلادي، حيث كرس حياته لدراسة الظواهر اللغوية، ووضع تآليف في النحو العبري أهمها "كتاب اللمع" الذي كتبه بالعربية[69].

إضافة إلى هؤلاء نذكر "ابن النغريلة" والذي اعتبر شخصية مركزية في المجتمع اليهودي، حتى حمل لقب "ناغد"، والتي تعني الأمير بالعبرية، حيث كان يشتغل بنظم الشعر العبري وإثراء الأبحاث التلمودية، ليصبح بذلك من ألمع رجال عصره في كلا الحقلين، ولعل سيرته اللامعة جعلت منه مثالا يذكره الآباء اليهود لأبنائهم لكي يتخذونه قدوة[70]، وقد وصفه صاعد الأندلسي بقوله : "وكان عنده من العلم بشريعة اليهود، والمعرفة والانتصار والذب عنها، ما لم يكن عند أحد من أهل الأندلس قبله"[71].

كما ترعرع في هذا الجو أحد أكبر الفلاسفة اليهود، والذين أسدوا للدين اليهودي خدمات جليلة مازالت

تذكر بينهم لحد الآن، وهو "موسى بن ميمون" الذي قال فيه أهل ملته "من موسى إلى موسى لم يخلق مثل موسى"، واعتبر أحد أعمدة الفلسفة اليهودية في القرون الوسطى، وصار عندهم كبير أحبارهم عبر التاريخ، وجمع بين الفكر العلمي والديني والفلسفي والطبي، بجانب كل هؤلاء لا ننسى سعديا الفيومي رغم أنه تربى في أحضان الثقافة العربية الإسلامية بالشرق، إضافة إلى سليمان بن جبيرول، وأبراهام بن يحيى بن داود، وإبراهيم بن عزرا وغيرهم كثير، كما وجد الشعر اليهودي نهضة بارزة باللغة العبرية موازاة للشعر العربي في أوزانه وأسلوبه ومحتواه، ومن ذلك تقليد الحريزي اليهودي لمقامات الحريري، ليدخلها كفن جديد في الأدب العبري، إضافة إلى استعمالهم لبحور الخليل ليصبح هذا الفن مهما في حياتهم الاجتماعية مثلما كان بالنسبة للمسلمين، وبذلك لا يمكن فهم التراث الديني اليهودي في هذه الفترة إلا بالعودة إلى التراث الإسلامي، ويمكن القول إن ظاهرة تفاعل مفكري الجماعة اليهودية مع الحضارة الإسلامية، كان أمرا لا نظير له في أية حضارة أخرى، لدرجة أن الناظر في الآثار التي كتبها أعلام اليهود في الأندلس يجد فيها كثيرا من معالم الثقافة العربية الإسلامية، وأحيانا من النصوص المقدسة الإسلامية إما عبر استشهادات نصية أو تضمينا، وقد ساهم في هذا كله كما سبق الذكر، رغبة اليهود وحتى النصارى في تقلد مكانة سامية في المجتمع الإسلامي، وخاصة على المستوى السياسي.(72)

غير أن الدكتور أحمد شحلان يعترف بأن كثيرا من العلوم التي نشأت ونمت في ظل حضارة الغرب الإسلامي، كانت في شق منها من بنات جهود اليهود، لأنهم وضعوا مشهور تآليفهم باعتماد الموروث اليهودي في لغته وأصوله ومضامينه.(73)

خاتمة:

ضم المجتمع الأندلسي عناصر اختلفت أصولها وعقائدها من مسلمين، ومسيحيين، ويهود...، تساكنت جميعها وساهمت في بناء حضارة متميزة عرفها التاريخ، بغض النظر عن الخصوصيات الدينية والعرقية لهذه العناصر، هذه الحضارة التي تفاعلت فيها جميع الثقافات، فأثرت وتأثرت، وأعطتنا نموذجا لحضارة تعايشت فيها أعراق وأديان، وأشاعت بنور علمها ونبراس معرفتها على الدول الأوروبية المجاورة، حيث تلاقت الأفكار في احتكاك علمي وثقافي، ويكفي شاهدا على ذلك مناظرات ابن حزم مع ابن النغريلة وما كان بينهما من حوار ومجادلات حول الدين.

ومما سبق، يتبين أن الحضارة العربية الإسلامية عموما والحضارة الأندلسية خصوصا، قد احتضنت أهل الملل من يهود ونصارى وهيأت لهم أجواء الأمن والاستقرار وكنفتهم بالتسامح الديني، وخلقت لهم فرص الإبداع التي ساروا فيها على نهج المسلمين، وأعطتهم الحرية الكاملة في ممارسة عباداتهم وطقوسهم وتطبيق شرائعهم وعاداتهم الاجتماعية وإقامة القضاء بينهم وفق

أحكامهم الشرعية، دون إكراه أو ضغط من طرف المسلمين.

إن تناغم هذه الثقافات المختلفة داخل الحضارة الإسلامية في الأندلس يدل على الطابع التعددي الذي ميز هذا المجتمع دينيا واجتماعيا. وأن هذه التعددية خير دليل على تسامح الإسلام وقدرته على تمثل الديانات المختلفة، وإعادة صياغتها في مشروع حضاري إنساني.

الهوامش:

1- ياقوت الحموي: "معجم البلدان"، دار صادر، بيروت، 1397هـ - 1977م، ج1/ 262.

2- كولان ج.س، ترجمة إبراهيم خورشيد، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، 1980م، ص: 58 بتصرف.

3- ابن خلدون عبد الرحمن، "العبر"، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 1992م، ج4 / 140.

4- البكري أبو عبيد، "جغرافية الأندلس وأوروبا من كتاب المسالك والممالك"، تح: عبد الرحمن علي الحجي، دار الإرشاد، بيروت، ط1ن 1968، ص 59.

5- المقري أحمد بن محمد، "نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب"، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، (د.ت)، ج1/ 133.

6- كولان ج.س، الأندلس، ص39 – 40.

7- حتاملة محمد عبده، "إيبيريا قبل مجيء العرب المسلمين"، عمان، الأردن، 1996م، ص: 257، 262 (بتصرف).

8- طه عبد الواحد ذنون، "الإسلام في المغرب والأندلس كيف انتشر ولماذا؟"، دار المدار الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 2009م، ص: 77.

9- الفقي عصام الدين عبد الرؤوف، "تاريخ المغرب والأندلس"، مكتبة نهضة الشرق، مصر، 1984م، ص: 44 – 45، (بتصرف).

10- حاييم الزعفراني، "يهود الأندلس والمغرب"، ترجمة: د. أحمد شحلان، ج1، مرسم الرباط، د.ط، 2000، ص: 29.

11- الحجي عبد الرحمن، "أندلسيات، دار الإرشاد"، بيروت، 1969م، ص 160.

12- De Epalza, Miguel (1987). Jésus Otage : Juifs, Chrétiens et Musulmans. En Espagne, VI-XVII siècle, Paris : CERF. PP : 201 – 202.

13 -Provençal, Levi (1932): L'Espagne Musulmane. Au Xe Siècle. Paris. P : 160.

14 -Egila, J (1972). Diccionnario De Historia Eclesiastica De Espana. Madrid. T.2, P : 778.

15 -Hammam, Mohammed (1995). L'occident Musulman. Et l'occident Chrétien. Au Moyen Age. Royaume du Maroc : Publications de La faculté. Des lettres – Rabat. P : 201.

16- عبد البديع لطفي، "الإسلام في إسبانيا"، مكتبة النهضة المصرية، مصر، ط2، 1969م، ص: 30 – 31، (بتصرف).

17- الوراكلي (حسن)، "فضاء التواصل الحضاري بين المسلمين وأهل الذمة في آثار فقهاء الأندلس"، الحضارة الإسلامية في الأندلس ومظاهر التسامح، منشورات مركز دراسات الأندلس، الندوة الأولى، مطبعة النجاح، ط 1، 2003، عدد الصفحات 648، ص: 470.

18- إبراهيم حسن (حسن)، "تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي"، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر، ط.7، ج.3، عدد الصفحات 498، ص: 174.

19- بنشريفة (محمد)، "حول التسامح الديني"، ص: 21.

20- شحلان (أحمد) "التراث العبري اليهودي في الغرب الإسلامي"، ص: 13.

21- محمد الحسيني (خلف)، "اليهودية بين المسيحية والإسلام"، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة، أسيوط، مصر، يونيو 1964، عدد الصفحات 221، ص: 89.

22- عبد الحميد الحمد (محمد)،"دور اليهود العرب في الحضارة الإسلامية"، ص: 272.

- شحلان (أحمد)، "التراث العبري اليهودي في الغرب الإسلامي"، ص: 17.

23- نفس المرجع السابق، ص: 18.

الوراكلي (حسن)، "فضاء التواصل الحضاري بين المسلمين وأهل الذمة في آثار فقهاء الأندلس"، ص: 467.

24- شحلان (أحمد)، "مكونات المجتمع الأندلسي ومكانة أهل الذمة فيه"، ص: 237.

25- بنشريفة (محمد)، "حول التسامح الديني"، ص: 19.

- ماك كيب (جوزيف)، "مدينة المسلمين في إسبانيا"، ص: 16.

26- القادري بوتشيش (إبراهيم)، "محطات في تاريخ التسامح بين الأديان والشعوب بالأندلس" www.anadalusite .ma_arab، ص: 6.

27- شحلان (أحمد)، "التراث العبري اليهودي في الغرب الإسلامي"، ص: 23.

28- المرجع نفسه، ص: 24 – 25

الوراكلي (حسن)، "فضاء التواصل الحضاري بين المسلمين وأهل الذمة في آثار فقهاء الأندلس"، ص: 495.

29- القادري بوتشيش (إبراهيم) "محطات في تاريخ التسامح بين الأديان والشعوب بالأندلس" www.andalusite.ma_arab، 10 – 11.

بنشريفة (محمد) "حول التسامح الديني"، ص: 18.

30- القادري بوتشيش، المرجع السابق، ص: 7 – 8.

31- الوراكلي (حسن)، "فضاء التواصل الحضاري بين المسلمين وأهل الذمة في أثار فقهاء الأندلس"، ص: 476 – 490.

- بنشريفة (محمد)، "حول التسامح الديني"، ص: 17.

القادري بوتشيش (إبراهيم) "محطات في تاريخ التسامح بين الأديان والشعوب بالأندلس" www.andalusite.ma_arab، ص : 29.

32- بنشريفة (محمد)، مرجع سابق، ص: 16

الوراكلي (حسن)، "فضاء التواصل الحضاري بين المسلمين وأهل الذمة في أثار فقهاء الأندلس"، ص: 473 – 494

33- المرجع نفسه، ص: 492.

- شحلان (أحمد)، "الحياة العامة في الأندلس العصر الوسيط الحضارة الإسلامية في الأندلس ومظاهر التسامح"، منشورات مركز دراسات الأندلس وحوار الحضارات، الندوة الأولى، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، ط1، 2003، عدد الصفحات 648، ص: 185 – 186.

شانديلين (ريموند)، "اليهود في إسبانيا المسلمة"، الحضارة العربية في الأندلس، ص: 306.

34- التازي (عيد الهادي)، ابن ميمون بفاس، من ندوات أكاديمية المملكة المغربية، حلقة وصل، بين الشرق والغرب، من ص: 205 إلى 213.

- الوراكلي (حسن)، "فضاء التواصل الحضاري بين المسلمين وأهل الذمة في أثار فقهاء الأندلس"، ص: 497.

- شحلان (أحمد)، "التراث العبري اليهودي في الغرب الإسلامي"، ص: 58.

35- بن عبد الله (عبد العزيز) "اليهود" www.abdelaziz-ben-abdellah.org، ص: 7.

- شحلان (أحمد)، "التراث العبري اليهودي في الغرب الإسلامي"، ص: 59.

36- بنشريفة (محمد)، "حول التسامح الديني"، ص: 18.

37- القادري بوتشيش (إبراهيم) "محطات في تاريخ التسامح بين الأديان والشعوب بالأندلس" www.andalusite.ma_arab، ص : 85

38- شانديلين (ريموند)، "اليهود في إسبانيا المسلمة"، الحضارة العربية في الأندلس، ص: 303.

- يونغ (لا غ)، "الإله اليهودي"، ترجمة نهاد خياطة، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، سوريا، ط.2، 1995، مقدمة.

39- عبده قاسم (قاسم)، "اليهود في ظل الحضارة العربية الإسلامية"، www.madarik.islamonline.com

40- سامي النشار (علي)، أحمد الشويني (عباس)، "الفكر اليهودي وتأثره بالفلسفة الإسلامية"، ص: 1 – 2.

41- شعشوع (سليم)، "تاريخ الفلسفة والعلوم اليهودية في أرض الإسلام"، ص: 3 و7.

42- الوراكلي (حسن)، "فضاء التواصل الحضاري بين المسلمين وأهل الذمة في أثار فقهاء الأندلس"، ص: 502 – 503.

43- بن محمد (علي)، "النشر الأدبي الأندلسي في القرن الخامس"، ص: 76.

- الودغيري (عبد العلي)، "المعجم في الأندلس، مجلة عالم الفكر"، حضارة الأندلس، المجلد 12، 1981 أبريل-ماي- يونيو، وزارة الإعلام بالكويت، عدد الصفحات 288، ص: 75.

44- مختار العبادي (أحمد)، "في تاريخ المغرب والأندلس"، ص: 120.

45- عبد الحميد الحمد (محمد)، "دور اليهود العرب في الحضارة الإسلامية"، ص: 273 – 274.

46- الودغيري (عبد العلي)، "المعجم في الأندلس، مجلة عالم الفكر"، ص: 76 – 77.

47- شحلان (أحمد)، "صور من اللقاء العلمي بين المسلمين وأهل الذمة في الأندلس"، مجلة التاريخ العربي، العدد 4، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، عدد الصفحات 314، ص: 285.

48- يوسف موسى (محمد)، "بين الدين والفلسفة في رأي ابن رشد وفلاسفة العصر الوسيط"، دار المعارف، القاهرة، مصر، عدد الصفحات 238، ص: 18 – 19.

49- إبراهيم حسن(حسن)، "تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي"، ج.3، ص: 178.

50- بن محمد (علي)، "النثر الأدبي الأندلسي في القرن الخامس"، ص: 82.

51- نفس المرجع السابق، ص: 83.

- ماك كيب (جوزيف)، "مدنية المسلمين في إسبانيا"، ص: 84.

52- هيلينبراند (روبرت)، "قرطبة القروسطية مركزا ثقافيا عالميا، الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس"، ج.1، ص: 189.

53- نفس المرجع السابق، ص: 190.

54- هيلينبراند (روبرت)، "قرطبة القروسطية مركزا ثقافيا عالميا، الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس"، ج.1، ص: 195.

55- بن محمد (علي)، "النثر الأدبي الأندلسي في القرن الخامس"، ص: 91.

56- هيلينبراند (روبرت)، "قرطبة القروسطية مركزا ثقافيا عالميا، الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس"، ج.1/ 197.

57- عبد العزيز سالم (السيد)، "قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس"، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ج.1/7.

58- ماك كيب (جوزيف)، "مدنية المسلمين في إسبانيا"، ص 85.

59- هيلينبراند (روبرت)، "قرطبة القروسطية مركزا ثقافيا عالميا، الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس"، ج.1، ص: 174.

60- حركات (إبراهيم)، "الثقافة وتبليغها في الأندلس في عصر الريادة"، ص: 125 – 128.

- ماك كيب (جوزيف)، "مدنية المسلمين في إسبانيا"، ص: 83.

- هيلينبراند (روبرت)، "قرطبة القروسطية مركزا ثقافيا عالميا، الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس"، ج.1/ 193.

61- شحلان (أحمد)، "من الفكر الفلسفي اليهودي العربي"، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، عدد 5 و6، 1979، ص: 6.

62- بن عبد الله (عبد العزيز)، "في الفكر الإسلامي وأثره في فلسفة ابن ميمون"، من ندوات أكاديمية المملكة المغربية، ص: 11.

63- عبد العزيز سالم (السيد)، "قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس"، ص: 57

- عبد الحميد الحمد (محمد)، "دور اليهود العرب في الحضارة الإسلامية"، ص: 271.

64- ماك كيب (جوزيف)، "مدنية المسلمين في إسبانيا"، ص: 77.

65- التازي (عبد الهادي)، ابن ميمون بفاس، ص: 209. و - حمادة (فاروق)، "المذهبية الذهبية في فكر أبي الوليد بن رشد الحفيد"، ص: 296. و- بنشريفة (محمد)، "حول التسامح الديني وابن ميمون والموحدين"، ص: 28 – 29.

66- عبد الحميد الحمد (محمد)، "دور اليهود العرب في الحضارة الإسلامية"، ص : 262.

[67]- نفس المرجع السابق، ص: 263.

- شحلان (أحمد)، **"التراث العبري اليهودي في الغرب الإسلامي"**، ص: 33.

[68]- هيلينبراند (روبرت)، **"قرطبة القروسطية مركزا ثقافيا عالميا، الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس"**، ج.1/ 304.

[69]- نفس المرجع السابق، ص: 304.

[70]- نفس المرجع السابق، ص: 304.

[71]- شحلان (أحمد)، **"التراث العبري اليهودي في الغرب الإسلامي"**، ص: 110.

[72]- لاندو (ديفيد) **"الأصولية اليهودية"**، مجدي عبد الكريم، **"مكتبة مدبولي"**، القاهرة، مصر، ط1، 1994، عدد الصفحات 416، مقدمة.

- هيلينبراند (روبرت)، **"قرطبة القروسطية مركزا ثقافيا عالميا، الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس"**، ج.1/ 301 - 307.

[73]- شحلان (أحمد)، **"التراث العبري اليهودي في الغرب الإسلامي"**، ص 9